الأبعاد الحضارية للثورة التحريرية
وأثرها في الشعر المغاربي

أ. محمد زكور
جامعة عنابة

تمهيـــد:

تتميز بلدان المغرب العربي المتمركزة في شمال إفريقيا بتقاربها الكبير على جميع الأصعدة، وفي مختلف مظاهر الحياة، وعُرف أهلها قديما بالتواصل المحدود بينهم، إلى غاية مجيء الإسلام الذي سهل عملية الترابط والتلاحم المتين بين أهل المغرب العربي الموحد.

وقد أدت عملية الاختلاط هاته إلى بروز قومية مغاربية قوية تقوم على مبادئ العروبة والإسلام.

كما ساهمت الخصوصيات الأخرى في تقوية الروابط وتعزيزها، والمقصود بكلامنا هذا هو وحدة الأرض والتراب والمناخ ووحدة التقاليد.

وباختصار فإن دول المغرب العربي كانت في مختلف الظروف والمراحل التاريخية تشبه بعضها بعضا، إلى حد التكامل والتماثل في شتى الملامح والظواهر.

وبهذا فإن المغرب العربي وحدة عربية لا تتجزأ عن الوطن العربي الكبير، ورغم محاولات الغربيين تقسيم سكان المغرب العربي إلى سلالتين: عربية وبربرية فإن الواقع يثبت أن المغاربة أمة واحدة.

المقاومة الجزائرية والمغرب العربي

بدأت الحركة الوطنية في الجزائر تتشكل قبل بداية الحرب العالمية الثانية، ويعود الفضل في ذلك لزعماء الحركة الإصلاحية التي تزعمها الشيخ عبد الحميد بن باديس وذلك في سنة 1931[1].

وقد استطاعت هذه الحركة الحفاظ على الشخصية الوطنية بكل مقوماتها العربية والإسلامية بعدما كانت على مشارف الانقراض بسبب السياسة الحاقدة على كل ما هو عربي إسلامي التي اتبعها المستعمر.

وقد تميزت الحركة الوطنية الجزائرية منذ الوهلة الأولى باتجاهاتها الهادفة لبناء مغرب عربي موحد، والدليل على ذلك أن أول حزب جزائري سُمِيَ بحزب نجم شمال إفريقيا[2].

وعند اندلاع الثورة التحريرية عام 1954 نجد أن بيان أول نوفمبر يؤكد على ضرورة الاستمرار في الكفاح في إطار مغاربي عام.

ولعل هذا التمسك بوحدة المغرب العربي هو الذي دفع بالشعراء المغاربة لتبني هذه الفكرة وتوظيفها في إبداعاتهم الشعرية، وذلك إسهامًا منهم في ترسيخ الفكرة وتأكيدها في النفوس، المتشوقة لرؤية فجر الحرية والانعتاق من ليل الاستعمار الذي طال أمده.

---

1 – أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية. ط:3. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983. ج: 2، ص: 393.

ومن الأمثلة والشواهد العاكسة لتجذر فكرة المغرب العربي نورد فيما يلي بعضا من النماذج الشعرية على سبيل المثال لا الحصر.

وأبرز مثال يمكن الحديث عنه هو الشاعر الكبير مفدي زكريا[1] فنجده مثلا يقول بكل حماسة وفخر:

كفر الذين قالوا: "الشمال ثلاثة" ودعـــوا إلى إذلالـــه بالـنـــار
نصبوا العصي على الحدود سفاهة وسعـوا إلـــى توزيعـــه لضـرار
والمغرب العربـي شعـب واحـد ملء العـــروق دم العروبة به جارٍ

كما نجد الشاعر المغربي أحمد عبد السلام البقالي[2] يشدد على ضرورة لم الشمل المغاربي فنجده يقول:

أنا بـربري أنا عـربـــي وأندلسـي أنـــا مـغـربـــي
شمال إفـريقيا اشتعل والتهب واحرق بـنارك جنـــح الظلام
أتونـــس لا تسأمي و اسلمي فيـومـك لا بـــــد آت
ويا جـارنـا في الجزائـر ما رقـادك و اللـيل قـــد أدبرا؟[3]
ويا شعـب مراكش المستميت حمدا لله، لآســـادك الثائـرين

---

1 ــ مفدي زكريا: ديوان اللهب المقدس. منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر. 1973. ص:118.

2 ــ مصطفى بيطام: الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي. د/ط. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر. 1998.

3 ــ لم تكن الثورة قد اندلعت بعد.

من خلال هذين النموذجين نلمس الرغبة القوية المتأصلة في نفوس شعراء مغربنا من أجل الوحدة، وقد زادت قوة هذه الرغبة بعد اندلاع الثورة الجزائرية، حيث ألهبت الثورة النفوس الخانعة المترددة، وأعادت الأمل المفقود للمغاربيين وللعرب كافة حتى أن البعض اعتبرها ثورة العروبة بل ثورة العرب والمسلمين كافة.

انعكاس أبعاد الثورة على الشعر المغاربي

1. الأبعاد الوطنية

لقد ساهم التعلق المذهل للشعب الجزائري بوطنه وأرضه في شحذ الهمم وتعزيز الرغبة في بناء وطن مغاربي موحد رافض لكل أشكال العدوان الاستعماري الجائر.

هذا ما دفع الشعراء إلى المناداة بوطن عربي موحد من أقصى المغرب إلى أقصى الخليج، في إطار عربي إسلامي.

لقد كانت الأبعاد الوطنية للثورة حقا ملهمة للشعراء المغاربيين، فقد تأثروا أيما تأثر للمقاومة الجزائرية، وتمسك أهلها بأصالتهم وشخصيتهم رغم المحاولات المكثفة للمستعمر من أجل محو كل ذلك.

هذا ما دفع بالشاعر الجزائري أبو الحسن علي بن صالح[1] يصرخ في وجه فرنسا الاستعمارية غداة اندلاع الثورة التحريرية فيقول:

فرنسا اعلمي أن الجزائر أمـــة ... بأمجـــادها بـــين الشعـــوب تفاخـــر

لقد نشرت في الغابرين حضارة ... وهـــذا فـــم التـــاريـــخ مثن وشاكر

---

1 ــ مصطفى بيطام: المرجع نفسه. ص: 220.

كما نجد مفدي زكريا يشيد بالسياسة المعتمدة من قبل الثورة قصد لم الشمل وتوحيد الصفوف المشتتة فيقول:

نحن فـــي الجـــزائر إخـــوا ن جـــــراحتـــــــنا الثخينة حمرا

لحمة الضاد والعـــــروبة والتا ريـــخ والـــديـــن: آي ربـــك كبرى

ويعاود مفدي زكريا مرة أخرى التذكير بأن الجزائر **أرض الأبطال** لن تخضع أبد الدهر للاستعمار، حيث يقول عن بلد الأبطال والتضحيات:

دم الصحـــابة معجون بتربتها قـــد خـــلدها على الدنيـــا الأسانيد

ومما سبق نخلص إلى أن التعلق بالوطن والارتباط به والحنين إليه كان من أكثر المحفزات على قيام الثورة، حتى أن الباحثين المختصين يرجعون سر نجاح المقاومة الجزائرية عبر تاريخها الطويل إلى قوة التمسك بالوطن والروح الوطنية الخالصة.

وما ثورة أول نوفمبر إلا تتويج لتلك الروح الوطنية المتأججة، وهذا ما ترجمه الشعراء المغاربة في أشعارهم لتجسيد إحساسهم القوي بالوطنية وبانتمائهم إلى أرض البطولات أرض الأمجاد وأرض التاريخ المجيد المليء بأسمى آيات الكفاح والتضحيات الخالدة.

2. الأبعاد القومية للثورة وأثرها في الشعر المغاربي

أ. البعد المغاربي

كان أهل المغرب العربي – ولا يزالون – يحلمون بالوحدة، وكانت فترة المقاومة الجزائرية من أفضل المناسبات التي ساعدت على إبراز هذا المطلب أكثر من أي

وقت مضى، وبالخصوص في فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين حيث حمي وطيس المقاومة وهذا ما أعطى نفسا جديدا للمطالبين بالوحدة المغاربية ونبذ التقسيم المقيت الذي فرضه الاستعمار على دول عربية إسلامية متحدة أصلا.

وفي هذا التوجه نجد الشاعر التونسي محمد المرزوقي[1] في قصيدته (المغرب الكبير) يقول بكل حماس وانفعال:

الله أكبر في صعيد واحد هذا شباب المغرب المتساند
قد أيقظته من الزمان حوادث فسعى إلى تهديم كل متباعد
وإلى إعادة وحدة ميمونة نبني بها صرحا لمجد تالد

وإلى جانب هذا الشاعر التونسي نجد شاعرا آخر من المغرب ينادي بنفس التوجهات مشددا على ضرورة الوحدة وهو الشاعر محمد الطنجاوي[2] الذي يصرح قائلا:

وحدة صرحها قوي قاهر شهد الله أننا قد أردنا
وحدة في المصير في كل شيء مثلما كان في القديم الغابر
وحدة في الشمال تبني لنا المجد ونبني بها السلام العاثر
وحدة نعتلي بها قمم الجبال فيرتد عن حمانا الجائر

من خلال ما سبق نلحظ الرغبة الجامحة لشعرائنا المغاربة في رؤية مغربهم العربي موحدا شامخا في وجه الأعداء، أعداء وحدته، تلك الوحدة التي ستسهل لهم

---

1 ـ مصطفى بيطام: المرجع نفسه. ص: 228.

2 ـ شاعر مغربي من مدينة تطوان، كان يشتغل بالصحافة والإذاعة ووكالة الأنباء.

الانضواء تحت لواء الوطن العربي الكبير كما كان مفدي زكريا ينادي ويدعو له حين يقول:

والمغـــرب العربي شعب واحد ملء العـــــــــروق دم العروبة جار
للشرق لا للغـــرب ولّى وجهه فغـــدا لـــه سنـــد الخـــوض غمـــار
لا شيء إلا وحـــدة عربـــية جبارة فـــي المغـــــرب الجـــبـــار[1]

ومما يدل على إيمان شعوب المغرب العربي بوحدة المصير، هو التجاوب التلقائي والدعم اللامحدود للثورة الجزائرية ومن أبرز ملامح التضامن المغاربي مع الجزائر المكافحة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: التوقف عن العمل من قبل عمال الغرب العربي يوم الثلاثاء 16 سبتمبر 1958.

إن الشواهد السابقة توحي وتؤكد على أن الثورة قد أثارت لدى الشعراء إيمانا قويا بوحدة المغرب العربي، وقد كانت فترة المقاومة الشعبية أفضل فترة تعززت فيها فكرة المطالبة بتحقيق هذه الوحدة، وبهذا كان الشعر انعكاسا صريحا وصادقا للرغبة القوية في نفوس الشعراء والشعوب المقهورة الحالمة بتحقيق التكامل والانتصار الفعلي.

2. البعـــد العـــربـــي

يعد البعد العربي للثورة الجزائرية كباقي الأبعاد الأخرى عريقا وأصيلا رغم كل المحاولات الاستعمارية من أجل تمسيح الجزائر وتنصيرها لكن هيهات أن يحدث

---

1 ــ اللهب المقدس. ص: 118،119. قصيدة "نار ونور".

ذلك، لقد كانت الثورة تسعى ضمن ما تسعى إليه إلى إحياء عروبة الجزائر التي حاول المستعمر جاهدا فرنستها وتغريبها.

ونجد أن شعرائنا يترجمون هذا الواقع من خلال حنينهم للعروبة، ورغبتهم الملحة للانضمام إلى الدول العربية ومن بين هؤلاء الشاعر الجزائري مفدي زكريا الذي يقول في إحدى قصائده:

يا أمة العرب الكرام كرامـــــة لك في الجـــزائر حـــرمة وزمـــــام
في كل أرض للعروبة عنـــدنـــا رحم تشابك عـــندها الأرحـــــــام
إن صاح في أرض الجزائر صائح لبتـــه مصـــر، أو أدركتـــــه شـــام
في المغرب العربي عـــرق نابض يذكيـــه فـــي حرب الخلاص ضرام
عز العروبة في حمى استقلالنـــا أبطيـــر مـــقصوص الجنـــاح حمام[1]

ومن خلال تمعننا في نص الشاعر يتضح لنا مدى حماس الشاعر لموضوع العروبة المتجذر في نفسه، والذي زادته الثورة الجزائرية تأججا ولهفة.

وإلى جانب مفدي زكريا نجد الشاعر والباحث الجزائري صالح خرفي[2] هو الآخر يصرخ بأعلى صوته وبكل ما أوتي من بلاغة لترجمة مختلجات صدره المفعمة بالحماس للتعبير عن عروبته المتأصلة فيه مثله مثل باقي إخوانه الجزائريين وكذا العرب:

---

1 ــ اللهب المقدس. ص: 51.

2 ــ من مواليد 1932 بالقرارة، تحصل على شهادة الماجستير عام 1961 ثم على الدكتورا عام 1970. تقلد عدة مسؤوليات في المجال الثقافي.

عرب نحـــن والعـــروبة غذت بهواهـــا عروقـــنـــا ودمـــــانـــــا
هي كالنـــــبع دافق في الحنايا إن تكـــــن في اللسان غاضت بيانا
عرب اليـــوم بالـــدمـــاء وأنا عـــربي في غـــد دمـــا ولســـانـــا

كما يبدو البعد العربي للثورة الجزائرية في الشعر الليبي واضحا جليا من خلال ما أورده الشاعر الليبي أحمد الفقيه حسن في قصيدة نضمها بمناسبة إحياء الذكرى السابعة للثورة الجزائرية ومما جاء فيها:

إن الجـــزائر أرضـــها عـــربية ورجالها عـــرب مدى الأعـــــصار
فرع العـــروبة لا تزال تلفـــه تلـــك الوشـــائج من بنـــي النجـــار
اليوم تـــتـــصل العـــروبة كلها في وحدة مـــن سائـــر الأقـــطـــار

ويقول أيضا في موضع آخر:

فمن المحيط إلى الخـــليج أواصر للعرب ثابتـــــة بـــلا إنـــكـــــار
نادى بها العرب الكرام فوحدوا كل الصفـــــــوف لحادث أو طار

وقد ساهمت الثورة الجزائرية في تجدد الأمل من أجل تحرير فلسطين فكلا البلدين يعانيان ويلات الاستعمار المقيت، ولعل هذا ما دفع بالشاعر المغربي إدريس الجاي[1] للدعوة إلى الجهاد المشترك من أجل تحرير البلدين ويصرح قائلا:

أوراس إن الطور والزيتون والـــ بلد الأمـــين إلى شـــعابـــك تنظـــر
تترقب الفـــجـــر الجـــديـــد ضيـــاؤه حـــرية تزجي الظلام فتبهـــر

---

1 ــ إدريس الجاي: مبدع وشاعر من مواليد مدينة فاس. له ديوان "السوانح".

بالـــدمع والدم من فلسطيـــن التي مأساتها مأساة شعب ينـــحـــــر

إن الأبيات السابقة تؤكد لنا بوضوح أن البعد العربي للثورة الجزائرية كسائر الأبعاد الأخرى، لم يكن حديث العهد أو وليد الظرف أو مجرد نزوة عابرة، بل هو أصيل أصالة الشعب الجزائري الثائر، وأن الثورة التحريرية قد استطاعت أن تحي النفوس الخانعة الذليلة وتعيد بذلك جذوة الأمل الذي كاد أن يخمد، أمل برؤية وطن عربي موحد وتحرير البلد الأسير "فلسطين".

3.البعد الإسلامي

لقد كان الدين الإسلامي بمثابة الحصن المنيع والدرع الواقي للشعب الجزائري، ظل يقيه ويحفظه من التمزق والهزات ويدفع عنه أطماع الطامعين ومكائد الظالمين وبفضله تم دحر الغزاة في مرات كثيرة وعبر أزمنة متعاقبة سجلها التاريخ وحفظتها المصنفات كشاهد عن استماتة شعب في سبيل حريته الغالية.

ومن خلال تتبعنا لمسار الثورة نجد أنها كانت قائمة أساسا على الإسلام بكل مقوماته، وأبعاده، وهذا بيان أول نوفمبر 1954 يذكر الإسلام في ثلاث فقرات حيث جاء فيها:

"أما في الأوضاع الخارجية، فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الديبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا **العرب والمسلمين**".

وجاء في الفقرة الثانية:

"إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ذات السيادة ضمن إطار **المبادئ الإسلامية**".

وفي الفقرة الثالثة نجد:

"تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي: **العربي الإسلامي**".

ومن أهم الأبعاد الإسلامية التي تبنتها الثورة نجد مبدأ الاستشهاد في سبيل الوطن، والتي كانت تماثل شهادة المسلمين في الغزوات والمعارك.

ولعل هذا ما جسده صالح خرفي في إحدى قصائده حيث يقول:

ففي أرض الجـــزائر خير جند ... يـــقيم لغابر الإســـــلام ذكـــــرى
كأنك فيهـــم بعلي ينـــــادي ... لـــقد وعـــد الإلـــــه الحـــق نصرا
فهبوا لاقـــتـــحام النار وابنوا ... علـــى جثث الفدا للمـــجـــد جسرا
وسيف الله يـــذكيـــها فيمضي ... كأسرع مـــن وميض البـــرق سرى
فليت العـــين منك رنت إليهم ... إذا لتذكـــــرت "أحـــدا وبـــــدرا"

وبهذا نخلص إلى القول بأن الثورة الجزائرية كانت قائمة على مبادئ الإسلام، وأن المواثيق أبلغ دليل على ذلك، لقد كان الإسلام هو الأساس والمنطلق لكل العمليات الجهادية والاستشهادية، كما أنه كان المثل الأعلى لكل الجزائريين وبفضله استطاعوا المضي قدما وتحقيق نتائج باهرة شهد لها التاريخ.

4.البعد الإنساني:

لقد تأثر الشعراء المغاربة بالثورة الجزائرية أيما تأثر، وكان الجانب الإنساني فيها من أبرز الجوانب والأبعاد التي أثرت في شعراء المغرب العربي والعالم العربي كافة.

فالمعروف لدى العام والخاص أن ثورتنا تعد من أكبر الثورات وأشهرها في القرن العشرين، كما أن لها أثرا بالغا في باقي الثورات، حيث أسهمت في دعم الحركات التحريرية في العالم، فعلى المستوى الإفريقي استطاعت العديد من الدول الحصول على استقلالها بطرق سلمية دون اللجوء إلى الحروب والثورات، والفضل كل الفضل يعود إلى الضغط الذي شكلته الثورة على المستعمر الفرنسي الذي لم يعد قادرا على إثبات تواجده في كامل المستعمرات الإفريقية، ومن جهة أخرى فإن انهزام قواته قد ساهم في بعث الثقة والحماس داخل الحركات التحررية في جميع المستعمرات.

ولعل هذا ما دفع بالشاعر الأبي مفدي زكريا لأن يوجه دعوة صريحة لشعوب إفريقيا كي تنتفض وتعلن التمرد ضد من استعبدهم فيقول:

شعب إفريقيا ستنصفك الـــــ دنيا وتصغي لـــك الشعوب الأبيـــة
وسيحكي هـــذا الزمان ويروي للـــبرايا فـــضـــائـــح المـــدينة
فخذ الثأر من فرنسا وخلـــد في الضحايا تلـــك النفـــوس الزكية
يـــا فرنســـا يا لعنة البشـــرية

كما نجد الشاعر في موضع آخر يعبر عن فرحته العارمة لانعقاد مؤتمر الشعوب الإفريقية بتونس في: 1960/06/25، كما يبرز لنا البعد الإنساني للثورة من خلال

تضامنها مع كل الشعوب المستعمرة وبالخصوص الإفريقية منها التي ذاقت الأمرين على أيدي المستعمرين، فيقول الشاعر:

المغـــرب الجبـــار في نشـــوة حـــيـــاك عـــنه جـــمعه الـــوافـــد
جزائر مدت إلـــيـــك يـــــدا حمـــــراء والموت بهـــــــا حاصد
مدي يـــــدا بيضاء نبن معـــا مجدا يصنعـــــه شعبـــــــنا الراشد
وحرري الميـــثاق يشهد بـــه طـــول المدى كفاحـــنا المـــاجـــد[1]

ومجمل القول هو أن العديد من الشعراء المغاربة الذين تجاوبوا مع الثورة الجزائرية كانوا في الوقت نفسه يدعمون ثورات الدول المقهورة، لأن القاسم المشترك بينها واحد وهو الرغبة في الحرية و الإعتاق من الاستعباد والعيش الكريم كغيرهم من بني البشر.

ومما سبق نخلص إلى أن الثورة الجزائرية المباركة كانت بأبعادها الوطنية والمغاربية والعربية والإسلامية والإنسانية، ثورة ضد الظلم واللاإنسانية، وضد الاستعمار بكل صوره.

خاتـــمـــة

لقد كان للثورة الجزائرية بكل ما حفل به مشوارها من مآسي وانتصارات الأثر البالغ في نفوس الشعراء المغاربة فضلا عن شعراء الوطن العربي، كما أنها كانت أكبر

---

1 ــ مفدي زكريا: اللهب المقدس. ص: 148.

مؤثر ومفجر للعواطف والمشاعر الوطنية لدى الشعراء، الذين لم يدخروا جهدا لإبراز تضامنهم الكلي واللامحدود مع هذه الثورة الخالدة التي قلما يشهد التاريخ مثلها.

لقد كانت الثورة بأبعادها الوطنية، العربية، الإسلامية، والإنسانية ثورة كاملة متكاملة، ويكفيها فخرا أنها كانت المثل الأعلى لدول المغرب العربي والدول العربية كافة.

لقد سعت للتغيير الجذري وأفلحت في تحقيقه ليس فقط على أرضها بل في باقي الدول الأخرى التي ظلت ترزح تحت وطأة الاستعمار المطبق على أنفاسها.

فعلا إن ثورتنا بأبعادها السابقة الذكر استطاعت أن تؤثر وبقوة في دول المغرب العربي وفي العالم أجمع، فطوبى لنا من ثورة وطوبى لمن حملوا لوائها.

مراجع الدراسة

1. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ط:3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1983.

2. مفدي زكريا: ديوان اللهب المقدس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية. الجزائر. 1973.

3. مصطفى بيطام: الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي "1962.1954"، دراسة موضوعية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية. بن عكنون. الجزائر. 1998.